الفصل العاشر
الانتحار وإزهاق الروح

كلمة الانتحار- إزهاق الروح - من الكلمات التي ترتبط في عقلية الشعوب التي تدين بالديانات السماوية بالخروج من رحمة الله. ولها وقع مؤلم لما فيها من فظاعة واستقباح لفكرة إزهاق الروح بالانتحار، وأشهر أساليب الانتحار التي عرفها اليابانيون هي بقر البطن harakiri 腹きり، ينظرون إليه بشيء من الإجلال والتمجيد لما فيه من مشاعر جرأة وإقدام على حسب ظنهم، وأصبح من المستحيل حمل الشعب الياباني على التفكير بالأقلاع عن هذه العادة أو نبذ فكرتها . والإنتحار يطلق عليه في اليابان لقظة (سيبوكو seppuku腹切- أو - كابوكو kappuku 腹割) والتي عبر عنها باللهجة الشعبية (هارا كيري) والتي تعني بقر البطن والموت انتحارا.

ولكن لماذا بقر البطن بالذات في الانتحار؟ السبب بسيط وهو اعتقاد اليابانيين أن البطن قفص الروح ومركز العواطف والشعور، والديانات القديمة ترى في الأمعاء قفصا محكما تبيت فيه الروح

والعواطف، والعبارة الإغريقية (فرن) أو (ثوموس) تعني أن الروح والعقل غالبا ما تسكن هذا المكان من الجسد، وتفيد الأبحاث العلمية الحديثة أن الأمعاء مركز الحب والألم وهي تخالف العرف الشعبي الذي يرى في القلب مسكن لذلك، لاشك أن العادة اليابانية التي تتعلق بالانتحار وبقر البطن ترجع إلى أن الموت في بعض الأحيان خيرا من حياة ذليلة وعيش وضيع، ويقول (جارث)-(إذا أصيب الشرف بمكروه فليس من الحياة غاية، والموت خير وسيلة لاجتناب الرذيلة والبعد عن عيوبها المحتمة)، وكبار فلاسفة العالم لم يأخذوا على سقراط إقدامه على قتل نفسه، في حين قال تلاميذه أنه كان بإمكانه تجنب الموت وإنقاذ حياته، وإذا كان الانتحار قتل الإنسان لنفسه، فلم نسمع عن أحد جرم فعلة سقراط ،حتى أفلاطون لم يحاول وصف معلمه الأكبر بقتل النفس أو الانتحار، هذا الأمر يتعلق بالقرون الوسطى والتي كثيرا ما كان يلجأ إليها الفرسان للتكفير عن خطاياهم والدلالة على استقامة أخلاقهم وحرصهم على إبقاء الشرف مترفعا عن كل ما يعيبه، فكان الفارس يقوم بقتل نفسه وكان يعرف باسم (سيبوكو Seppuku) ولا يعتبر هذا الفعل نتيجة فكرة عابرة أو رد فعل غير محسوب ولكن كان يعتبرها بمثابة قضية أخلاقية لارتباطها بالمعتقدات الدينية، وكانت تتم هذه العملية في طقوس احتفالية، وكان يقوم بعملية بقر البطن أو الانتحار وسط

صلوات وطقوس أشبه بترانيم الوداع لهذه الروح الشجاعة. وكان يتحلى المنتحر بمنتهى الهدوء وضبط النفس والتوازن الروحي التى تتفق وتعاليم البوشيدو، وكتب ميتفورد كتاب بعنوان " روايات عن اليابان القديمة " ذكر فيه أنه دعي لحضور حالة انتحار رسمية في أحد معابد اليابان وكان عدد الحضور سبع أشخاص فدخلوا إلى غرفة واسعة جدا تعلوها الرهبة والروعة والجلال وفي داخلها هيكل يتدلى منه مصابيح ذهبية وعلى جدران المعبد نقوشا خاصة بمعابد بوذا ومفروشة بالسجاد أو الحصير الأحمر وعليها شمعدانات طويلة عالية ضوءها خافت يشيع جو من الرهبة، ووقف اليابانيون في شمال الهيكل والأجانب على اليمين، حتى جاءت الضحية وكان رجلا يبلغ من العمر حوالي الثانية والثلاثون من العمر، تعلو وجهة تقاسيم وتعابير تدل على الجرأة والإقدام بصحبه شخصا غالبا ما يكون قريبا له أو صديق مقرب إلى نفسه كما تقضي العادات والتقاليد، وكان يرتدي ثوبا قطنيا خاص بهذه المناسبة له أجنحة كبيرة تتدلى على جانب الثوب وكان المتطوع لإعدام الضحية تلميذ قديم له عرف عنه المهارة بالرماية وإجادة المبارزة بالسيف وكان يجلس على يسار الضحية، وتقدم الضحية نحو الشهود وحياهم بانحناءة فيها من علامات الاحترام، ورد الشهود التحية بأحسن منها، ثم اتجه إلينا وقام بنفس الحركة، وأنصرف في هدوء ورزانة

كاملة يصعب وصف تفاصيلها، أنصرف إلى المكان المعد لموته، والمكان المعد هذا هو عبارة عن مائدة أمام الهيكل، وبصوت تعلوه نبرة قوية كأنه بينه وبين الموت مازال زمنا وليست دقائق معدودة، قال " أعترف أنني أمرت جنودي بإطلاق النار على بعض الأجانب افتراء، ومنعت هروبهم فتكفيرا عن هذه الجريمة اعتزمت تمزيق أحشائي بهذا الخنجر وأطلب منكم أن تكونوا شهودا على عملي، ثم قام بالتحية الأخيرة ونزع ردائه إلى ما تحت الصرة، وصعد إلى الطاولة وظهره إلى الهيكل ثم سجد على بساط فوق الطاولة المعدة، وهنا تقدم أحد الضباط حاملا صينية عليها خنجر متوسط الحجم، تناوله منه الضحية ورفعه فوق رأسه بكل احترام وتوأده علامة للخشوع ثم وضعه أمامه، لك أن تتخيل مدى السكون الرهيب الذي ساد القاعة!!، لحظات تعجز أي دراما تمثيلية مرعبة عن تصويرها بهذا الصدق، حقا لقد كانت لحظات غاية في السكينة المخيفة، لم يقطعها إلا حينما سحب الخنجر وبحركة رشيقة بقر بطنه وخر ساجدا وعنقه ممتدا إلى الأرض كسجود المسلم في صلاته، وتقدم الجلاد إلى الضحية بخشوع واحترام وتناول منه الخنجر الذي بقر به بطنه والدم مازال يقطر من الخنجر، علامة على أن الضحية انتحر بهدوء وطمأنينة، وأقترب منه شيئا فشيئا ورفع سيفه وفي لمح البصر ضربه ضربة قاصمة أحدثت دويا مؤلما

وموجعا في النفس، حيث انفصلت الرأس عن الجسد، خيم بعدها السكون مرة أخرى على المكان، وهنا تقدم الكاهن يطلب من الحضور الأجانب شهادتهم بأن الضحية تم إعدامه بكل صدق وأمانة، القصة ليست محاولة لإثبات فضيلة الانتحار وبقر البطن ولا الدفاع عن مساوئها ولكنها محاولة لربطها بالمعتقدات الدينية اليابانية والدلائل الأخلاقية هناك ،ومفهومها بالنسبة للشرف وفق تعاليم ومبادئ البوشيدو والأيمان العميق بكلمات دينية متوارثة كأقوال منشيوس في حكمة مأثورة له " أن الآلهة حين تعزم إسناد مهمة خطيرة لأحد أبنائها تؤذنه وتنذره بالآلام الكبيرة والمصاعب العظيمة وتقضي عليه بالفقر والشقاء وهي تريد من ذلك استكمال رجولته وبناء إرادته[٤٦] "

لذلك يرى الساموراي أن إيثار الموت والهزء به عمل يدل على الجرأة والشجاعة ولما تكون الحياة أشد روعة وألما من الموت فالتمسك بها يعد حمق وأقرب إلى الجهل والطيش.

عادات غامضة تحتاج إلى كثير من الإيضاح والفهم النفسي في تراث شعبي متراكم عبر أجيال طويلة، فالموت عندما يكون صادرا عن عام وأسباب الحرص على الشرف يكون مفتاحا لكثير من القضايا المعقدة – على حسب رأي البوشيدو المعروف عنه الإقدام

[٤٦] المرجع السابق.ص ٢٠٢-٢٠٣.

والطموح ويرى بالموت العادي قضية تختلف مع معتقداته الدينية وأشار بعض الكتاب إلى شجاعة بروتس للتخلص من الحياة الدنيوية، وتروي قصص التاريخ الياباني حادثة مفادها أن الأخوين (ساكون ونايكي) اتفقا على اغتيال الجنرال (اياسوiieaso) ثأرا لأبيهما وانتقاما لحرمته ولكن قبل الوصول لغايتهم قبض عليهما وصدر ضدهما حكم بالموت شملهما وكذلك شمل أخوهم الأصغر الذي لم يتم الثامنة من عمره وعملا بالتقاليد المتبعة في اليابان والتي ذكرنا تفاصيل وقائعها اقتيد الثلاثة إلى الهيكل لتنفيذ الحكم، فلما أستوى الثلاثة لتنفيذ الحكم قال الأخ الأكبر سنا لأخيه الصغير أستعد للموت وكن البادئ حتى أطمأن لإحسانك بقر بطنك، فأجاب الصغير أنه يؤثر رؤية أخويه ينتحر قبله ليقلدهما في سهولة ويسر وعند نهاية الحوار بدأ الأكبر في بقر بطنه قائلا لأخيه تأمل وأمعن النظر بما ينبغي عليك تقليده ولكن أنتبه ولا تدع الخنجر يتعمق في بطنك مخافة أن تسقط على ظهرك، وجاء الأوسط بنصيحته قبل الشروع في الانتحار بقوله لأخيه الأصغر " حذار أن تغمض عينيك وإلا تكون أشبه بالنساء منك بالرجال وإذا وجدت صعوبة وأنت تبقر بطنك فأجمع كل قواك وأدخل الخنجر من طرف إلى الطرف الأخر. [٤٧]

[٤٧] المرجع السابق.

وقد دافع عن طريقة الانتحار هذه بعض أعضاء المجلس الإمبراطوري في العام ١٨٦٩ فقالوا: أن الانتحار على طريقة (سيبوكو) له جذوره في الطاقة الحيوية لهذا البلد المقدس إنها لمزار مقدس للروح اليابانية.

(ياماتوداماشي(Yamatodamash i和魂) وإن الانتحار على هذه الطريقة يعد جوهرة فوق جبين بلادنا، وهو من أسباب سموها وتفوقها على البلاد الأخرى الموجودة فيما وراء البحار، والأكثر مدعاة للدهشة أن الأمر يحكم عليه بتخنث الأمم التي لا تقدم على هذه العادة . بحجة إن الحياة مجردة من كل قيمة أو وزن في نظر الفارس الساموراي، وان البوشيدو لا ينظرون إلى الانتحار على أنه عادة همجية أو عمل بربري وإنما نظام وقوانين له مساوئه وفضائله في ظروف معينة وشروط محددة.

ويمكن اعتبار الساموراي أول اليابانيين من ذوي الفردية ذات الجوهر الشخصي، ولاتوجد صفة أخرى يمكن أن نطلقها على أناس ينشدون الطهارة في تجربة قاسية من كل شيء يفعلونه على مرأى من الآخرين؟. والتنوير 悟り(Satori)) عند طائفة (زن) أمر يتعلق بالخلاص الشخصي، ويعد الانتحار - سيبوكو – كطقس يمارس في الطائفة – طريقة مشرفة للخلاص من العار لأنه فعل ينبع من الفردية الشخصية، وفي ذلك يمكن أن يتملكنا العجب من العناية الفائقة التي

كان ينفذ بها هذا الانتحار الطقسي : القطع المستعرض عبر البطن ثم إلى أعلى نحو الصرة وتلك قطعًا تجعل الموت مؤكدا دون أن تدمر شيئًا من الأعضاء الحيوية، هل كان ذلك كشفا طقسيا للذات الداخلية التي لا تمس؟، أم هو إشهار أخير لتأكيد أن ليس ثمة ذات وإنما الذات قد انمحت كي يستعاد الشرف بعد الوفاة.

ليس من الصعب أن نرى في فكر الساموراي أشياء نحاول اليوم فهمها وهي : إخفاء الشخصية، الولاء الصارم للجماعة ، ولاء إلى أبعد حدود الولاء[٤٨] .فهناك اختلاف كبير بين الانتحار والثأر أو الانتقام، والثأر من العادات التي شملت كل شعوب الأرض وكل البشر ولا تزال حتى الآن تمارس عند بعض الأمم ويلجأ إليها في أحوال معينة.

فكرة الساموراي عن الكينونة اليابانية الساكنة في الروح أخذت في الآنتشار وتعد أشهر أساطير الأدب الياباني (قصة ٤٧ ساموراي) والتي تحكي أحداث حدثت في العامين ١٧٠١ —١٧٠٢ عن الطقوس العملية التي تعيشها أحداث القصة وهي أن أحد الإقطاعيين يطلق عليه أسم (دايميوDaimyo) شهر سيفه في مواجهة موظف كبير يعمل في خدمة الشوجون (الحاكم العسكري)، ولأنه أهانه فصدرت الأوامر لهذا الإقطاعي بأن يقتل نفسه بالانتحار

[٤٨] المرجع السابق.

على طريقة (سيبوكو) ومن ثم تحول رجال الساموراي التابعون له إلى مقاتلين مشردين بلا قائد أو مأوى وللتعبير عن الولاء لسيدهم الذي قتل، يقرر المحاربون قتل ذلك الموظف، وهم يضحون في سبيل ذلك بكل شيء، للأخذ بالثأر، فيتقبلون هلاك الآباء والأمهات والزوجات والأطفال، وأخيرا أوقع الساموراي بخصمهم في كمين نصبوه تحت سقفية أحد القصور وقتلوه بالسيوف، وهكذا اعتبروا أبطالا بسبب الأخذ بالثأر والوفاء لقائدهم ولكنهم حق عليهم الموت أيضا بطريقة (السيبوكو) بأسم الولاء الأكبر[٤٩] .

أما الثأر وهو القصاص كما ذكر القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة المائدة (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

فالقصاص هو إرواء العاطفة بروح العدل وإدراك التوازن المطلوب، وبعض الفلاسفة والقانونيين يذهبون إلى ترك الانتقام لقوة غير القوة البشرية لأخذ العدل أو القصاص لها، أو الاحتكام لقوة أكبر للقصاص أو الثأر، ومنهم من ذهب بعيدا كالإغريق، حيث تركوا القصاص لقوة الطبيعة، إلا أن البوشيدو كان لهم رأي آخر مختلف

---

[٤٩] "بعض ملامح الشخصية اليابانية-من منظور علم النفس" د.عبد اللطيف خليفة،مجلة:"دراسات يابانية وشرقية/يوليو٢٠٠٨.

عن هذا الفكر، وجعلوا من المسئوليات الأولية والواجبات المنوطة به القصاص والثأر ممن أساء لإخوانه، ومهما علت من أصوات تدعو إلى التسامح وإغفال الإهانة التي تلحق بالفرد فإن صوت كونفوشيوس يظل الأقوى في أذن البوشيدو وهم يرددون صدى تعاليمه بإن الآنتقام أساس مشروع ومبدأ عادل إذا كانت الإساءة للسادة أو الشوجون ولكن في نفس الوقت يعتبرون أن الآنتقام لإهانة لحقت بالزوجة أو الأولاد من الأمور المكروهة بل والمحظورة عندهم، ووفقا للمفهوم السائد فإن الكل في خدمة الإمبراطور وهذا هو الشكل المميز للولاء، وعرفه (هيروبومي أيتو Hirobumi Ito) أن المهمة الرئيسية التي تواجهنا اليوم هو أن نغرس في أذهان الأهالي كلهم روح الولاء والتفاني والبطولة، التي كانت في السابق ترتبط بطبقة الساموراي، وأن نجعل هذه القيم قيمهم، وان يظهروا تفهما لقيمنا الأخلاقية النبيلة والمشاعر القومية الرفيعة .

ويدفعنا الحديث عن الثأرإلى تناول قصة أرينوري موري (١٨٤٧– ١٨٨٩Arinori Mori) أول وزير للتعليم في اليابان في الربع الأخير من القرن الثامن عشر وكان يتميز بطباع المحاربين القدماء وتجري في عروقه كل تعاليم الساموراي وتدرب على أعمال الحرب والقتال، وقضى (موري) معظم أوقاته في سفرياته بين أوروبا وأمريكا مما تمخضت عن شخصية أخرى لرجل شديد الثقة بنفسه

وسيم ذو نظرة نفاذة وبنية قوية وعمل سفيرا لليابان في واشنطون وكان أول ياباني يتزوج على الطريقة الأوروبية، وحاول منح زوجته الحقوق الأمريكية ويحررها من العقيدة الكونفوشية حتى وصفوه بأنه الغربي المولود في اليابان، ثم تحول موري مرة أخرى وأصبح وطنيا متعصبا، حتى ذهب لزيارة أحد المعابد المقدسة في(أيسيه Isee جنوب طوكيو والحق أن الزيارة كانت مخلصة ولكن موري أخطأ في المراسم المقدسة، فلم يخلع نعليه عند دخوله المزار، وأستخدم عصاه لإزاحة ستار مقدس ما كان لأحد من البشر أن يمسه، وقيل أن التفاصيل غير معروفة عن الزيارة، إلا أنه بعد عامين وفي يوم إعلان الدستور الجديد لليابان عام ١٨٨٧ تلقى (موري) طعنة خنجر أودت بحياته بيد أحد القوميين المتعصبين، وهو أحد الساموراي السابقين مثله، انتقاما منه لما حدث في مزار (أيزي) الأمر الذي أربك الجميع فلم يعرف العامة إن كان عليهم أن يكرموه، أم يكرموا القومي المتعصب الذي أغتاله. [٥٠]

ومع سيطرة المدنية والحضارة أخذت النظم والأصول الجزائية الخاصة بالانتقام عند البوشيدو تنقرض شيئًا فشيئًا ويحل محلها النظام الجديد والقوانين التي تنظم العلاقات الحديثة .وانتشرت المحاكم والبوليس وملاحقة مرتكبي مثل هذه الجرائم، وتلاشت قصص

[٥٠] موري أرى نوري/مجلة السادس من ميجي Mei.roku.zasshi .عام١٨٧٤.

الفرسان الذين يقسمون بتراب المقابر بالانتقام لزوجاتهم وماتت قصص العذارى اللائي كن يتلفحن بلباس الفوارس لتعقب آثار من قتل أبيها أو أخيها أو حبيبها، وأصبح القانون هو موزع العدل بكل نزاهة وحياد وحاصر الوضع الاجتماعي ظماً القلب للارتواء بدم الثأر وأصبحت الآن عادة الانتقام من العادات الغير سائدة في عصرنا هذا وإن كانت مازالت تحدث ولكن بعدد محدود جدا .

أما الانتحار فمازالت ظاهرة تحير علماء النفس والأخصائيين لأنها مازالت مستمرة في اليابان بل تتزايد أعدادها ولا نعتقد أن زوالها سيكون أمر فوري لأنها مازالت تستمد نفوذها من روح السلف وستبقى متأصلة في نفوس اليابانيين، وتختلف عن مناهج الانتحار في العالم لأن الانتحار السائد في اليابان ليس من دوافع الاضطراب العقلي أو الثورة العاطفية وإنما تصدر عن نفس هادئة مطمئنة وروية لا تبعث على التأذي منها هناك أو التذمر من أساليبها .